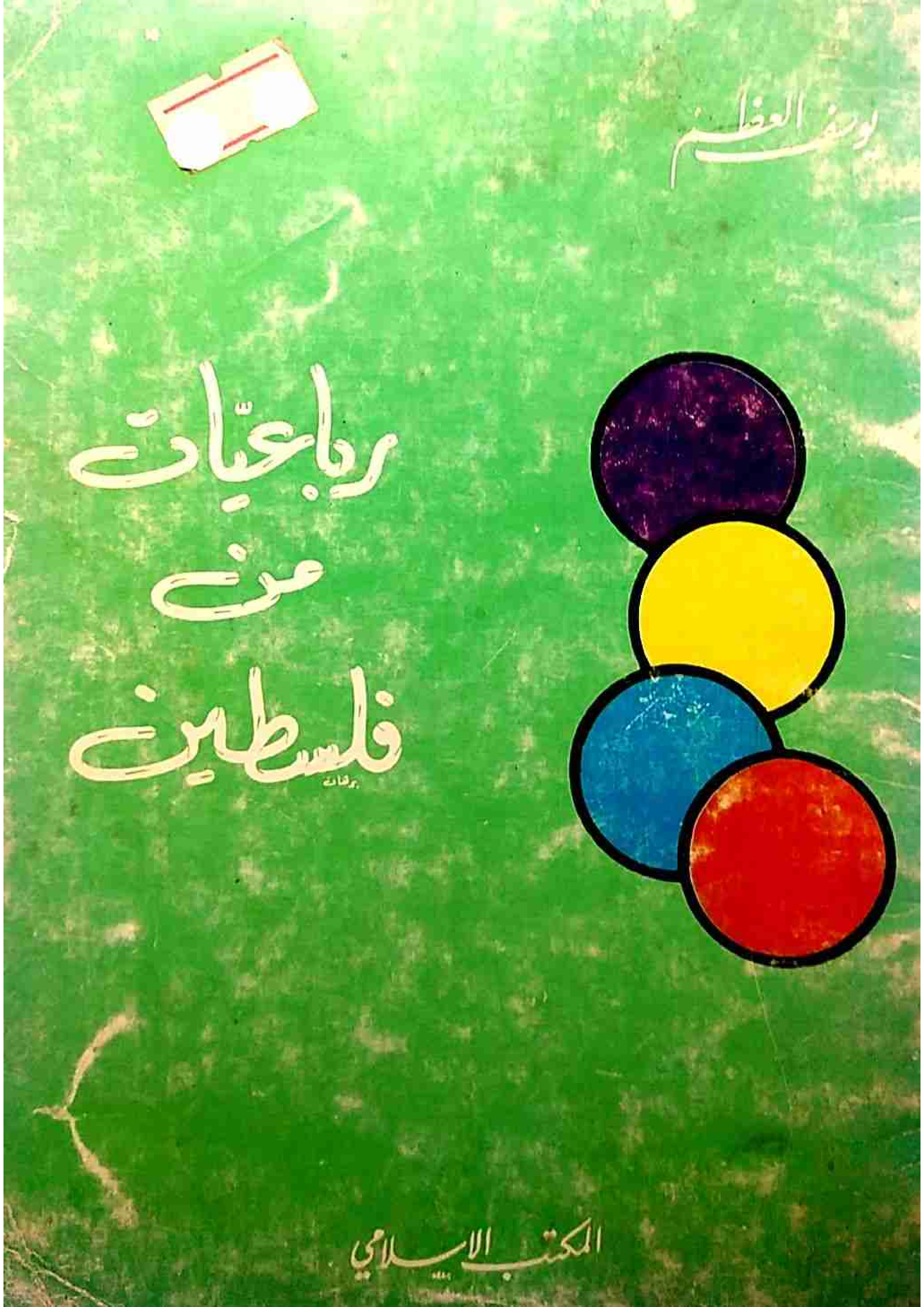

يوسف العظم
رباعيات من فلسطين
المكتب الاسلامي

رباعيات من فلسطين

الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م
الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلامياً
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

يوسف العظم

رباعيات من فلسطين

المكتب الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحیم

عندما وقعت هزيمة الخامس عشر من أيار .. كنت على مقاعد الدراسة الثانوية.. وفي افياء النكبة الرهيبة رحت اسجل الأحداث وأصور الوقائع في غير تحديد تاريخي ولا ضبط زمني !

لقد صورت عبر عشرين عاماً كثيراً مما وقع من عدوان الدخلاء .. وعبث العابثين من بني قومي .. وخلجات النفس المعذبة في خط النار الصامت الرهيب أو المضمخ بالدم واللهيب. فجاءت « الرباعيات » تصويراً لمشاعر ومواقف عشناها بمرارة وأسى .. وتوثب وأمل .. بين نكبة أيار .. وكارثة حزيران !

أبو جهاد

١٥ ايار !

«.. وجاء الخامس عشر من أيار .. فتذكرت النكبة والمأساة والعار .. »

بُعثِرتْ أَيامُنا عاماً فعاما
وزرعْنا الأَرضَ بؤساً وخِياما

وطويْنا بسمةَ العُمْر على
أَملِ العَوْدةِ .. أَوْ نقضي كِراما

لا تسلْني يا أَخي في عجبٍ
لِمَ لا تملأُ دنياكَ ٱبْتساما ؟

أَنا مذْ مزَّق قُدْسي غاصبٌ
صارتِ البسمةُ في شرعي حَراما؟

توثــب !

« وتحررت دول أفريقية كثيرة .. واحتفلت
كينيا والماو ماو بعيد الاستقلال .. وفلسطين
ما زالت ترسف في الأغلال .. »

خنْدقي قبري ، وقبري خندقي
وزنادي صامتٌ لم ينطقِ

فمتى ينفُث « رشاشي » متى
لهباً يصبِـغُ وجهَ الشَّفَقِ ؟

ومتى أَخلعُ قيدًا هدَّني
وثياباً نُسِجتْ مِنْ قَلَقِ ؟

أَشرَقَ النُّورُ على كلِّ الدُّنا
فمتى يغمرُ أَرضَ المَشْرِقِ ؟

يوم المؤن !

« وقفوا يتدافعون .. في عيونهم حيرة وفي أيديهم بطاقات مهترئة .. تؤكد للدنيا وجود المشردين من بني قومي تحت كل سماء .. »

وسأَلتُ القومَ عن ضَجَّتِهِمْ
قيلَ يَبْغونَ « دقيقاً » وطَعاما

منكبٌ فيهمْ يُحاذي منكباً
وعظامٌ دفعتْ منهمْ عِظاما

كم كميٍّ « عربي » ثائرٍ
كبَّلُوا فِي كفِّه الدَّامي الحُساما

وجوادٍ « عربي » قدْ غَـدا ..
يمضغُ السَّرجَ .. ويقتاتُ اللِّجاما

وغنت.. فيروز!

« وارهف القوم آذانهم لصوت فيروز ينطلق من حفل ساهر في ربى عمان. أما نحن المرابطين فما كانت أذاننا لتسمع غير هدير الآلات في تحركات العدو ».

نحنُ يا فيروزُ ما عادَ لنا
أُذنٌ تَهفو .. وللَّحنِ تَحِنُّ

كلُّ ما فينا جراحٌ ودمٌ
نازفٌ منْ كبدٍ حرَّى تَئِنُّ

إنما تطربُ أُذنٌ حـرَّةٌ
إنَّما يفرحُ قَلْبٌ مطمئِنُّ

وطني يحميكَ نارٌ ولظىً
ليس يحميكَ أَغاريدٌ وفَنٌّ

مزقوا أكبادنا !

« .. وأظهر اليهود من ضروب الغدر في دير ياسين ما لن ينسى لهم .. كان الميدان مدرسة للصغار .. وكان الشهداء .. أطفالا في عمر الزهور .. »

« روضةُ الأَطفالِ » ماذا قدْ دهاها
وبنارِ الموت « صهيونٌ » رَماها

بدل الزهر .. وحباتِ الندى
مزقُ الأَكبادِ ، قد غطَّتْ رُباها

لم يراعُوا حرمةَ العِلم ولَمْ
يخْشعوا للطُّهرِ ، قَدْ زانَ الجِباها

ليس بالشَّكْوى يُرَدُّ المعتدي
إنَّما بالنَّارِ يُصْلَوْنَ لَظاها

رغيف الذل !

« في حقيبة قديمة بالية عاش رغيف عفن استقر أخيراً .. في أمعائي !! »

جعتُ في يومٍ .. فأَرسلتُ يدي
لرغيفِ البؤسِ ، من خبزِ « الوَكالَه »

ومضغْتُ العارَ سُمّاً ناقِعاً
وشربتُ الكأْسَ ذلاً .. للثُّمالَهْ

سُلِبَتْ أَرضي .. وعاثَتْ طُغْمَةٌ
في رُبوعي .. تَدَّعي روحَ العَدالهْ

إنَّما مَزَّقَنا أَعْدَاؤُنا
حينَ بدَّلَنا الهُدى .. دربَ الضَّلالَهْ

الله اكبر !

« من مئذنة الأقصى السامقة .. انطلق المؤذن
يوقظ الغفاة .. ويحيي الموات ..»

رَدَّدَ الكونُ نِداءَاتِ الأَمانْ
أَجملَ الأَلحانِ في سمعِ الزَّمانْ ..

دعــوةٌ للحقِّ في أَجْوائِنـــا
كلُّها خيرٌ وبرٌّ وحَنانْ

لو عَرَفْنا اللهَ ما شَطَّتْ بنا
سبلُ التَّضْليلِ .. أَوْ ذُقْنا الهَوانْ..

غيرَ أَنَّا أُمَّةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ
خيرُ ما فيها ..حديثٌ ولسانْ !!

حكايات .. دامية !

« .. فوق سور القدس .. تساءل رفيقي معي :
ترى ماذا سيكتب التاريخ عنا غداً .. لقد كان
إصبع كل منا على زناد البندقية ! »

فوقَ سورِ القدسِ عندَ الحرمِ
ربضَ الإخوةُ أَحرارُ الدمِ

في فمِ الواحدِ منَّا لهبٌ ..
منْ سعيرِ الثورةِ المضْطَرِمِ

قصةٌ قد سطرت من دمنا ..
وحَكايا الظُّلم، والثأْرِ الظَّمِي

فمتى نَروي حكايَانا متى ؟
ومتى ينطِقُ للدنيا .. فمي ؟

بجـرم ..

« تزوج ثري من ديارنا راقصة زواجاً عرفياً ما لبث أن فسخته اللعوب بعد أسبوع.. كان صداقها عشرين ألف دينار »

أَترعَ الخائنُ كـأْساً من دمانا
وسقاها لبَغِيٍّ أُرجُوانـــاً

ليلةٌ حمراءُ مـــا أَتْعَسَها ..
مُلِئَتْ ذلاً رهيباً وهوانا

وصمةُ العارِ عـــلى هاماتِنا
أَن نرى في الموكب الدَّامي جبانا

وإذا الدارُ بنوها فرَّطـوا
لا تلوموا الذئْبَ.. أَنْ يرعى حِمانا

نار .. على المحراب !

« .. وتساقطت على محراب مسجد « بيت اكسا » قنابل محرقة .. هدمت أركانه وصدعت جدرانه » .

هَدَمُوا المحرابَ .. واجتَثُّوا المُصلَّى
ورمَوْنا بلهيبِ المحرقاتِ ..

ودعوْنا مجلسَ الأَمنِ وإِذ
ليسَ في المجلسِ أُذْنٌ لشكاتي

كنتُ « بالأَمسِ » أَرُدُّ المعتدي
غيرَ أَني « اليومَ » قد ذلَّتْ قَناتي

ربِّ .. أَدعوكَ نصيرًا مُرتجى
أَتُرى .. تقبلُ في الذُّلِّ صَلاتي ؟؟

ظلال الذكرى!

«واحتفلنا في شطر من القدس .. بذكرى الإسراء والمعراج».

موطني صارَ على الأَيامِ سبَّه
بعدَ أَنْ كانَ إباءً ومحبَّه

أُفْقُه «مسرى» نبِيٍّ ثائِرِ
في ظلالِ «المُنْتهى» سبَّحَ ربَّهْ..

كم غَرَسْنا أمـلًا في تُربِهِ
ورويْنا بدمِ الأَبْرارِ دربَهْ

لستُ أَدري كيفَ يحيا وطنٌ
سلب الغاصبُ والعداونُ قَلبَهْ ؟

سموم .. !

« استمعت إلى رواية من إذاعة عربية أوحت إلي أن « كارمن » هي فاتحة الأندلس .. لا طارق ابن زياد » .

قصةُ البغي عجيبٌ أَمرها
كمْ أَثارتْ بيننا مِن عجبِ

ما ٱكتفى « بالسيفِ » بل زوَّدنا
« بسُمومٍ » في سطورِ « الكُتُبِ »

فٱطْلُبوا علمكُمُ من غاصِبٍ
وٱرتَجُوا مجدَكُمُ منْ أَجْنَبي

إن لَمَحْتُمْ طيبةً من ثعلبٍ
أَو لمستمْ رقةً من عقربِ

وزارنا البابا !

« .. ومر بنا البابا حاجاً .. يزور الأرض
التي احتضنت مهد عيسى .. ومسرى محمد أكرم
بهما قبسي هدي وإيمان .. »

عندما مرَّ بِنا « البابا » إلى
أَرضِ ميلادِ المسيحِ الطَّاهرِ ..

قلتُ يا ضيفُ سلاماً أَوَّلًا
ينضحُ « المهدَ » بمسكٍ عاطرِ !

هذه أَرضُ « صلاحٍ » بطلا
ردَّ عدوانَ الدَّخيلِ الغادرِ ..

كلُّ شبرٍ من ثراها جُبِلا ؟
بنجيعٍ من شهيدٍ ثائرِ

عند الطبيب . !

« ومنحني الطبيب اجازة اسبوع .. ليرتاح
جسدي من سهر الليل الطويل .. »

وطبيبٍ عادني في علَّتي
ومضى يكتبُ لي خيرَ دَواءْ .

ظنَّ في صدريَ داءً هدَّني
ورأى الراحةَ من بعدِ العَناءْ

كيفَ يا « جراحُ » أَرضى راحةً
أَنا جنديٌّ على خَطِّ الفِداءْ

وجراحُ الصَّدْرِ لا تؤْلِمُني
إنما يَسْحَقُني .. جرحُ الإِباءْ

الغـــوث . !

« وزارنا من وكالة الغوث مندوب يسألنا عن
حالنا في الخطوط الأمامية .. »

قلتُ للزَّائرِ إذْ يسأَلُنا
« كيفَ حالُ »القوم ِ في هذي الربوع

ان سأَلتَ الصِّدقَ ، فلتصغ ِ لنا
منذُ جفَّتْ في مآقينا الدُّموعْ . .

نحنُ شعبٌ قد سُلِبْنا الوَطَنا
نحن في عريٍ وآلام ٍ وجوعْ ..

وطعامُ « الغوثِ » لا يُشْبِعُنا
نحنُ لا يُشبعنا غيرُ الرجوعْ ..

فتاة القدس !

« لقيتها بباب العمود .. وكنت عائداً من خندقي في إجازة .. وجرى بيننا حديث مرير .. حول المصير » .

حدَّثتني حرةٌ في المجلسِ
بحديثِ الطهرِ عفِّ النَّفَسِ

تسأَلُ الغادةُ عن أَيامنـــا
عندَ يافا ، عندَ « باقي » القُدُسِ

في غدٍ يشرقُ فجري ضاحكاً
ويذيبُ النُّورُ ليلَ الغلسِ

ان لقيتِ في « عريني » أَسدًا
فاطمئني لخلاص «المكْنسِ »

غزة .. الصامدة . !

« ودحر الشباب الفلسطيني المجاهد في غزة جموع الغاصبين وبنت جثث الأبرار منهم صرحاً لا ننساه عنواناً على تضحية الشهداء وغدر الدخلاء » .

قدْ هَزَمْنا كلَّ جبارٍ عنيدِ
وكتبْنا صفحاتٍ منْ خُلودِ ..

وغدتْ غزَّةُ رمزًا للفِدا
بوسامٍ ، سالَ من صدرِ الشَّهيدِ

وغدا العدوانُ في « طغيانِه »
لعنةَ الأَجيالِ في كلِّ صعيدِ ..

فلتدلْ راياتُه ولتندَحِرْ
دولُ البغيِ ، وأَعلامُ اليهودِ ..

رجاء .. فدائي . !

« إلى الذين يبحثون أمر الشعب المشرد .. والوطن الضائع في أول مؤتمر وطني لمنظمة التحرير الفلسطينية » .

يا جموعاً زحفَتْ عبرَ الخِيام
وشموعاً في دياجيرِ الظَّلامِ

انَّ في كفيَ «رشاشاً» غدا
صدِئاً يَزري بتنميقِ الكلامِ

أَنا ليثٌ في عَريني رابضٌ
هدَّني قيدي وأَضناني لِجامي

فاَجمَعوا صَفَّكم في وَحدةٍ
واذكُروا النكبةَ في ظِلِّ الخِصامِ

مرحباً رمضان !

« وأطل رمضان بكل ذكريات البطولة فيه
ومرارة الواقع الذي نحياه .. »

أَيُّ شهرٍ في سمانا قَدْ بدا
كان بالأَمسِ إِباءً وبُطولة ..؟

قد أَضعْناهُ هباءً وسُدى
مذْ هجرنا عزةَ الدِّين الأَصيلة

وحُرمنــاهُ صَفاءً وهُــدى
مذْ تبعْنا زيفَ أَمجادِ القَبيلة

فمتى نرجعُ فيه سجدا
ورجالًا ، نعمَ إِيمانُ الرُّجولة

ليس من الاسلام !

« وزار رئيس بلد مسلم « اسرائيل » والتقى برئيس اليهود فيما تبقى من القدس .. يتبادلان التحية ! » .

أَيُّها المسلمُ ماذا قدْ دهاك
تمنحُ الأَعداءَ روحاً ودما .. ؟

كيفَ ترضاهُ « إِخاءً » خاسرًا
تزرعُ الشَّوْكَ، وتجني العَلقَما ؟

يا لعارٍ أَنتَ عُنوانٌ لـهُ
في رُبا « الأَقْصى » تُحيِّي المجْرِما

نحنُ لنْ نرضَى على طُولِ المَدى
أَن يكونَ النَّذْلُ فينا مُسلِما

صفعة !

« ومر القطار يشق قرية بتير نصفين .. وأطل من نافذته يهودي عفن .. بصق على الأرض حيث كنت أقف ! » .

أَينَ منْ يُبصرُ أَوْ مَن يسمعُ
وطنٌ يُسبى ، وشعبٌ يُصرعُ ..

مزَّقَ الغاصبُ روضي عندما
شَطَرَ الرَّوضَ «قطارٌ» مُسرعُ

بصقَ الغاصبُ في حقْلي فَهلْ
أَدركَ العربيدُ ماذا يصنعُ ؟

لستُ أَدري غيرَ معنىً واحدٍ
كلُّ وجهٍ في دياري .. يُصفعُ ..

همسة ثائرة !!

« .. وحملقت في عتمة الليل .. فتحدثني من
بعيد أضواء سيارة عسكرية للعدو .. »

أَنَـــا في جَوْفِيَ نـــارٌ ولـــهبْ
أَنَـــا في صَدْرِيَ حِقْدٌ وَغَضَبْ

فَمَتى يَلـــفِظُ جَوْفِي لَهبـــا ؟
عنْدَمَا يخجـــلُ حكام العربْ !

وَمَتى ينفُثُ صَـــدري غَضَبا ؟
عندما يَصْمِتُ « سَحْبانُ » الخُطَبْ!

عندَهـــا نَسحقُ أَعداءَ الحِمى
ونُباري فِي العُلَى .. هامَ الشُّهَبْ !

عيد !.

« العيد لمسلوب الديار .. مسلوب البهجة
كالح الوجه شاحب البسمات »

أَقْبَلَ العيــدُ ورفَّــتْ ذِكْرَياتُ
وَتَلَظَّى في الحَنايَــا أُمنِيــاتُ

أَيْــنَ يافَــا ؟ أَيْنَ حَيْفا ؟ وَلَكُمْ
في رُبَى الكَرْمِلِ تَحْلُو السَّهَراتُ !

أَيْنَ عَكَّا عَنْ حِماهــا صامدًا
هُزِمَ العُدوانُ وٱرتَدَّ الطُّغـاةُ ؟

عِيدُنَــا عَـوْدٌ كَريمٌ ظَافِــــرٌ
وبِغَيْرِ « العَوْدِ » لا طَابَتْ حَياةُ !!

حـب

« وأغفلت كل نبضة في قلبي لغير الموقف
الذي احياه والمأساة التي أعيشها »

سَاءَلَتْني في حمانـــا ظَبْيـــةٌ
أَتُحِبُّ الشَّوْقَ في عَيْـنِ صَبِيَّه ؟

قُلتُ لا أَعْشَـــقُ طرفاً ناعساً
وخدودًا وشفاهــاً قُرمُزِيَّهْ !

إِنَّمــا أَعْشَقُ صَـــدرًا عامِـرًا
يحمِلُ الموتَ وَيَزْهُو بالمَنِيَّهْ !

أدركَتْ سرِّي وقَالَتْ ظَبْيَتِي :
أَنتَ لا تَعشَقُ غيرَ البُندقِيَّـهْ !

الفهرس

١٥ أيار ٧
توثبْ ٨
يوم المؤن ٩
وغنت فيروز ١٠
مزقوا أكبادنا ١١
رغيف الذل ١٢
الله أكبر ١٣
حكايات دامية ١٤
مجرم ١٥
نار على المحراب ١٦
ظلال الذكرى ١٧
سموم ١٨
وزارنا البابا ١٩
عند الطبيب ٢٠

الغوث ٢١
فتاة القدس ٢٢
غزة الصامدة ٢٣
رجاء فدائي ٢٤
مرحباً رمضان ٢٥
ليس من الإسلام ٢٦
صفعة ٢٧
همسة ثائرة ٢٨
عيد ٢٩
حب ٣٠